الفصل الخامس

القاتـــل والقتيل

القتيل هو جريجورى إفيمى راسبوتين ، فلاح روسى غريب الأطوار . ادعى القداسة وآمن بقداسته قيصر روسيا وقيصرة روسيا ورؤساء الكنيسة الأورثوذكسية فى العاصمة الروسية قبل أن تذاع وتنتشر فضائح راسبوتين فيما بعد ، وحاول رؤساء الكنيسة فى موسكو التخلص من راسبوتين ، ولكنهم فشلوا فى ذلك لتمسك القيصرة ألكساندرا بقداسة وضرورة وجود راسبوتين فى البلاط الروسى، وهو ما عرضنا بعض تفاصيله فى الفصول السابقة .

والقاتل هو الأمير الأرستقراطى فيلكس يوسوبوف Felix Youssoupov الذى خطط وشارك فى تنفيذ خطة اغتيال راسبوتين .

كان الأمير فيلكس يوسوبوف سليل أسرة عريقة ثرية إلى حد كبير فى روسيا. وكان رأس هذه الأسرة ، يوسوبوف خان هو حاكم إقليم كريميان Crimean Peninsula الذى تحالف بعد سلسلة من الحروب مع قيصر روسيا إيفان الرهيب Ivan The Terrible أمير موسكو وأول القياصرة الروس .

وفى أعقاب هذا التحالف بين حاكم إقليم فى جنوب شرق روسيا وبين إيفان الرهيب كان يوسوبوف خان يذهب فى كثير من الأحيان إلى موسكو وطابت له الإقامة فيها مستمتعا بصداقة وود أول القياصرة الروس .

وكانت ابنة يوسوبوف التى كانت تقيم فى إقليم كازاخستان محورا لكثير من الصراعات بين الزعماء وحكام المقاطعات الروسية المتاخمة لإقليم كازاخستان ..

ويبدو أن ابنة يوسوبوف كانت تنتهج سياسة معادية للنفوذ الروسى على الرغم من وجود أبيها رهينة فى بلاط قيصر الروس إيفان الرهيب فى موسكو مما أفضى إلى أن يشن إيفان الرهيب حربا ضارية ضد إقليم كازاخستان ، ووقعت ابنة

يوسوبوف فى الأسر ، وحاول يوسويوف التخلص من قبضة إيفان الرهيب ، ولكن أحد إخوة يوسويوف كانت لديه دوافع انتهازية كافية لدرجة أن قتل أخاه وأعلن كامل الولاء لسلطان إيفان الرهيب لإنقاذ أبناء عشيرته من تدمير إيفان الرهيب لحياتهم وتخريبه لديارهم .

ومضى خان عبد المرزا يوسوبوف شوطا أبعد من ذلك فى إظهاره الولاء لسلطات إيفان الرهيب بعد إقدامه على قتل أخيه إذ أعلن اعتناقه للمسيحية على المذهب الأورثوذكسى الروسى ، وأعلن تنازله عن استقلال إقليم كازاخستان وخضوعه التام للدولة الروسية بقيادة إيفان الرهيب . وبذلك أصبحت كازاخستان جزءا من أراضى الدولة الروسية وأصبح أهلها مواطنين روس . ومنح القيصر فيودور الثالث إلى عبد المرزا يوسوبوف لقب الأمير ديمترى يوسوبوف Prince Dimitri Yousspouv وهكذا تم رفع أبناء أسرة يوسوبوف إلى مرتبة الأمراء فى الدولة الروسية .

ووضع الأمير جريجورى يوسوبوف ، ابن ديمترى يوسوبوف أسس حياة ومحور نشاط أفراد أسرة يوسوبوف على أساس أن يخدموا بكل قوة وإخلاص فى جانب الإمبراطور الروسى والإمبراطورة إلى آخر رمق فى حياتهم بكل إخلاص وتفان . وهكذا عاش أبناء أسرة يوسوبوف دائما مستمتعين بعلاقة وطيدة وثيقة العرى بالقياصرة من أسرة رومانوف . وفى عام ١٧١١م ،أرسل القيصر بطرس الأكبر على رأس جيش لمحاربة جيش السويد . وأبلى جريجورى يوسوبوف فى هذه الحرب بلاء حسنا لدرجة أن القيصر أنعم عليه بأراضى إحدى المقاطعات وقام بتعيينه معلما فى كلية الحرب الروسية .

واستطاع جريجورى يوسوبوف أن يحظى بشرف تعيينه مستشارا عسكريا لأربعة قياصرة روس على التوالى هم : بطرس الأكبر ، وكاترين الأولى ، وبطرس الثانى، والإمبراطورة آنا ، وهكذا وطد جريجورى يوسوبوف أقدامه فى البلاط القيصرى . وازدادت مكانته رسوخا فى هذا البلاط القيصرى بزواجه من

ابنة أحد أمراء أسرة رومانوف ذاتها مما جعل أبناءه وأحفاده يمتون بصلة القرابة لأبناء أسرة رومانوف صلة حقيقية لا مراء فيها .

وكما عمل جريجورى يوسوبوف مستشارا لأربعة من القياصرة الروس ، عمل أحد أحفاده أيضا ، نيقولا يوسوبوف مستشارا لأربعة قياصرة روس فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وهم : القيصرة كاترين ، والقيصر بول ، والقيصر ألكساندر الأول ، والقيصر نيقولا الأول . وقام نيقولا يوسوبوف بزيارة كثير من بلدان أوربا بصفته مستشار قيصر روسيا وعاد من كل زيارة بكثير من التحف والهدايا التى تكدست فى قصور آل يوسوبوف الشتوية والصيفية فى موسكو وبطرسبرج وفى الإقطاعيات العديدة التى أصبحت أسرة يوسوبوف تمتلكها .

وبعد وفاة نيقولا يوسوبوف ، ورث أملاكه الكثيرة ووظيفته كمستشار للقيصر ابنه بوريس يوسوبوف الذى تزوج مرتين ، وفى كل مرة كان يتزوج من أميرة من أسرة رومانوف . تزوج فى المرة الأولى من الأميرة براسكوفيا شرباتوف ، وبعد وفاتها تزوج من الأميرة زيناید نارشكين وهى جدة الأمير فيلكس يوسوبوف الذى اغتال راسبوتين فيما بعد . كان أبوه نيقولا يوسوبوف هو ابن الأميرة زيناید ومن خلال عطايا القياصرة الروس لأبناء أسرة يوسوبوف أصبحت هذه الأسرة على رأس أغنى (٨٧٠) أسرة غنية فى روسيا . (٨٧٠) أسرة تكاد تمتلك كل أراضى روسيا ، وفى مقدمة هذه الأسر الثمانى مائة والسبعين كانت أسرة يوسوبوف هى الأكثر ثراء والأوسع أملاكا للأراضى وللعقارات .

وعند مولد نيقولا يوسوبوف كانت عائلة يوسوبوف تمتلك عشرات الإقطاعيات وعشرات القصور . وكانت العائلة تمتلك فى موسكو قصرا يحمل رقم (١١٥) فى شارع «فونتانكا كانال» قام بتصميم مبانيه مهندسون إيطاليون تحت إشراف المهندس الشهير «جياكومو كوارنجى» وأدخل عليه مهندسون معماريون فرنسيون وسويسريون كثيرا من العمليات المعمارية لزيادة مساحته وإضافة أجنحة إلى مبانيه وإضافة طوابق أخرى إلى مبانيه .

وكانت عائلة يوسوبوف تمتلك فى سان بطرسبرج قصرا كبيرا فخما يحمل رقم (٩٤) فى شارع «مويكا كانال» ، وكانت العائلة تمتلك أربعة قصور أخرى فى أماكن متفرقة فى جوانب الأراضى الروسية ، وكانت العائلة تمتلك فى موسكو وحدها خمسة قصور ضخمة بالإضافة إلى قصر فونتانكا كانال . وكان أبناء أسرة يوسوبوف يتنقلون للإقامة فى أفخر القصور حسب فصول السنة، الشتاء فى جنوب روسيا بالقرب من البحر الأسود ، والصيف فى موسكو وسان بطرسبرج . وكانت مجوهرات الأسرة تفوق الحصر بطبيعة الحال ، كما كانت أسرة يوسوبوف تمتلك أكبر مجموعة من التحف الفنية فى أوربا كلها. ولم يكن أحد من أبناء الأسرة يعرف بالضبط مقدار ثروة الأسرة .

وفى يوم ٢٣ مارس عام ١٨٨٧ ولدت زيناید يوسوبوف ابنها الثانى فيلكس يوسوبوف Filex Youssoupov ولما كانت تنتظر أن يكون مولودها ذاك أنثى كانت قد جهزت له بعض الملابس مما يلبسه البنات . وعندما ولدت ابنا ذكراً لم تجد بأسا فى أن تجعله يرتدى ملابس البنات التى كانت قد أعدتها من قبل الولادة . ويبدو أنه قد راق لها أن تستمر فى إلباس ابنها فيلكس ملابس البنات طوال سنوات طفولته ، كما تمادت فى ذلك المسلك إذ أطالت شعر رأسه وزينت صدره بالعقود والأساور الذهبية مما جرى العرف أن يكون زينة للبنات . ولقد تأثر فيلكس بذلك فى مطلع شبابه ورجولته إذ كان يحلو له أن يخرج للنزهة مع صديق له وقد ارتدى كل منهما ملابس النساء ويمرحان فى المسارح والمقاهى والمطاعم على هذا النحو الغريب ، والأكثر غرابة من ذلك هو أن الأمير فيلكس يوسوبوف قد شاعت عنه الأخبار أنه كان قد انغمس فى رذيلة «الجنسية المثلية Homosexuality» مما كان له تأثير كبير فى مسار حياته فيما بعد .

وكان للأمير فيلكس يوسوبوف أخ أكبر منه سنا هو نيقولا يوسوبوف سنعرف مصيره بعد قليل إذ يهمنا أن نلم بظروف نشأة وتربية بطل مأساة مصرع راسبوتين فيلكس يوسوبوف .

كان فيلكس يوسوبوف منذ مولده وطوال سنى طفولته ضعيف البنية معتل الصحة لايكاد يشفى من نوبة مرض حتى يصاب بنوبة مرض أخرى ، كما كان غريب الأطوار شاذ الطباع صعب الانقياد مندفعا إلى ممارسة وتنفيذ أغرب النزوات مما جعل من الصعب على أى مربية من أية جنسية أن تستمر فى رعايته وخدمته مدة طويلة ، لدرجة أن أول مربية عملت على رعايته أصيبت بالجنون ، وأدخلوها مصحة للأمراض العصبية ، ولم يستطع أى معلم أن يستمر فى التدريس له مدة طويلة على الإطلاق ، وتوالى على تربيته وتعليمه عشرات المربيات والمدرسين من جنسيات مختلفة : ألمان وفرنسيين ، وبلچيكيين وفنلنديين وإنجليز وسويسريين ومن مختلف جنسيات أوربا .

وعندما شب فيلكس عن الطوق قرر أبوه أن يدخله إلى الكلية العسكرية ، ولكن فيلكس تعمد الرسوب فى امتحان القبول . وحاول أبوه إدخاله إلى مدرسة ثانوية حكومية ذات نظام تعليمى صارم اشتهرت به ، وأوصى بقبوله دون امتحان للقبول ، وكانت هذه المدرسة مخصصة للطلاب المشاغبين الذى يصعب خضوعهم للنظام المدرسى فى المدارس الأخرى ، وهرب فيلكس من أسوار هذه المدرسة بالرغم من نظامها الصارم وصعوبة إمكانات الهروب منها لكى يستمر فى الحياة العابثة الماجنة ، واحتساء الخمر فى مختلف الحانات المخصصة لبيع الخمر ، وممارسة الرقص على أنغام الموسيقى الصاخبة . وكان فيلكس يقول لكل من يناقشه فى ذلك ويحاول أن يثنيه عن هذا المسلك : «أنا لا أفكر ولا أرغب فى شىء آخر سوى إشباع رغباتى وميولى ولا صبر لى على أى قيود تقيد حريتى » ويبدو واضحا جليا أن اندفاع الفتى الشاب فيلكس يوسوبوف لتنفيذ رغباته وما يعتقد أنه ضرورى سمة أساسية من سمات شخصيته . إنه يريد شيئا وهو يندفع لتحقيق هذا الشىء الذى يريده بكل جموح وإصرار ودون توقف أو تردد . هذا ، ولقد كان فيلكس يوسوبوف يستطيع فى بعض الأحيان أن يتصرف ويسلك وفقا للمعايير السليمة للسلوك والتصرف عندما يريد ذلك .

وفى كثير من الأحيان كان يصاحب والديه وأخاه فى الذهاب إلى حفلات مسرحية ، أو لزيارة بعض العائلات وهو يتصرف فى هذه المناسبات دون أى شذوذ أو خروج على المألوف . كان للجد والرزانة فى حياته أوقات ، وللهو والمجون والخلاعة أوقات أخرى . كان فى شخصيته الجانب الجاد والجانب المستهتر أيضا . وكان ثراء أسرته يتيح له عديد الفرص لممارسة نزواته المستهترة ، كما كانت إرادته القوية تمكنه من ممارسة الحياة الجدية وفقا لرغباته المتذبذبة بين الجد واللهو . وكان الأمير فيلكس يرتاد كثيرا من الأماكن التى لا يصل إليها إلا صفوة المجتمع من الأميرات والأمراء أحيانا ، وكان يجد أيضا كثيرا من المتعة والرغبة فى ارتياد أماكن اللهو الشعبية ، وكان يشرب الخمر ويرقص فى هذه الأماكن حتى مطلع الفجر .

وعندما بلغ فيلكس سن الأربعين وقعت مأساة لأخيه الأمير نيقولا يوسوبوف عندما قتل فى مبارزة مع أحد الضباط هو أروبد مانتوفيل الذى كان نيقولا عشيقا لزوجته . وفى الخامس من شهر يوليو عام ١٩٠٨ وصلت جثة أخيه إلى القصر ، وحزن الأمير فيلكس لمقتل أخيه فى تلك المبارزة حزنا شديدا وقرر الانتقام لأخيه وقتل ذلك الضابط أروبد مانتوفيل ولكن أمه خشيت أن يلقى مصير أخيه وأصرت على أن تثنيه عن عزمه على الانتقام من ذلك الضابط ، ولكن الأمير فيلكس لم يعد يطيق صبرا على البقاء فى العاصمة وهموم مقتل أخيه تسبب له تعاسة تفوق احتماله ، وقرر السفر إلى بريطانيا حيث التحق بجامعة أوكسفورد للدراسة ، وأمضى فى تلك الجامعة أربعة أعوام بكل جد والتزام وحصل على درجة الليسانس فى الآداب من جامعة أوكسفورد .

وبعد مقتل أخيه فى تلك المبارزة أصبح فيلكس يوسوبوف هو الوارث الوحيد لثروة ولقب آل يوسوبوف فى حالة وفاة والده ، وحار فيلكس فى كيفية التصرف فى كل هذه الثروات الطائلة التى كان قد أصبح هو الوريث الوحيد لها فى حالة وفاة والده .

وكانت إحدى خالات الأمير فيلكس روسوبوف تدعى الدوقة الكبيرة إليزابيث فيدروفنا Grand Duchess Elizabeth Feodorovna ابنة عم أمه وشقيقة القيصرة ألكساندرا تحظى باحترام كبير فى أوساط الطبقة الأرستقراطية كلها ، حيث إنها كانت قد كرست حياتها وثروتها للأعمال الخيرية ومساعدة الفقراء بعد اغتيال زوجها ، وكانت رياسة كنيسة ودير القديسة مارى والقديسة مرتا قد أسندت إليها .

وعندما وصل الأمير فيلكس يوسوبوف عند خالته الدوقة الكبيرة ، وجدها تجلس على كرسى فى حجرة المكتبة وارتمى عند قدميها وهو يبكى ، وسرد على مسامعها مشكلاته التى كانت تثقل كاهله وأولها حيرته فى كيفية التصرف فى ثروته الكبيرة على أفضل وجه .

وقالت له خالته : «ليست السعادة هى أن تعيش فى قصر كبير ، وليست السعادة هى أن تستمتع بالثراء الفاحش . هذه الأشياء يمكن أن تؤخذ منك وتضيع بسبب أو لآخر من بين يديك . السعادة الحقيقية شىء لا يستطيع الناس أن يأخذوه منك ولا تستطيع الأحداث أن تبددها من بين يديك » .

كلمات حكيمة تدل على تعقل ونفاذ بصيرة . وتدل على أن الخير موجود فى كل مجتمع بشرى ، والشر موجود أيضًا فى كل مجتمع بشرى ، والعبرة إنما تكون فى نسبة وجود الخير قياسا إلى وجود الشر فى كل مجتمع بشرى ، والعبرة إنما تكون فى غلبة أسباب الخير والصلاح على أسباب الشر والفساد أو غلبة أسباب الشر والفساد على أسباب الخير والصلاح .

ونزلت كلمات الخالة الدوقة الكبيرة إليزابيث على قلب الأمير فيلكس نزول البلسم الشافى على الجرح غير الملتئم لكى يشفى من السقم ويندمل ، وازدادت مكانة خالته الدوقة الكبيرة إليزالبيث فى نفسه احتراما وتقديرا .

وغادر فيلكس خالته بعد تلك الزيارة وتلك النصيحة . وكتب فى مذكراته يقول : «ولكننى لم أكن قد أطلعت خالتى الدوقة الكبيرة إليزابيث على كل

أسرار حياتى الخاصة ، وقررت أن أطلعها عليها فى زيارة أخرى فى القريب العاجل » .

وعلى الرغم من أن الأمير فيلكس ، فى عديد الكتب التى أصدرها وكتبها بنفسه عن سيرة حياته لم يحدد بالضبط «أسرار حياته الخاصة» تلك التى لم يطلع خالته عليها ويرغب الآن فى أن يطلعها عليها ويحظى بمشورتها بشأنها ، فمن الممكن أن تخمن أنه لم يطلعها على اعتياده ممارسة الجنسية المثلية مع أصدقائه من الرجال .

وعندما زارها مرة أخرى وأفضى إليها بكل أسرار حياته الخاصة وطلب مشورتها بشأن هذه الأسرار الخاصة فى حياته قالت له خالته الدوقة الكبيرة إليزابيث : «لا تنزعج . إننى أعرف عنك أكثر مما تعتقد أننى أعرفه عنك . وهذا هو السبب فى أن شئونك الخاصة تحظى باهتمامى الكبير . إن الشخص الذى يستطيع أن يعمل كثيرا من الأعمال الشريرة يستطيع أيضًا أن يعمل كثيرا من أعمال الخير والبر والإحسان الطيبة لو أمكن له أن يوجه إرادته فى الطريق الصحيح . وليست خطورة رذيلة من الرذائل تحول دون فتح باب التوبة عن هذه الرذيلة لو كانت التوبة توبة مخلصة صادقة . ضع فى اعتبارك دائما وتذكر دائما أن الشىء الوحيد الذى يعيب الروح إنما هو الخطيئة الروحية ، ويمكن للروح أن تظل سليمة على الرغم من تعرضها للضعف فى وقت من الأوقات إن روحك هى التى تهمنى ، وهذا هو الشأن الوحيد الذى أريد أن أوضحه لك» .

وكان تأثير هذه النصيحة كبيراً وعميقاً فى أغوار نفس الأمير فيلكس ، وكتب عنها فى مذكراته قائلاً : «ملأتنى كلماتها تلك بالأمل الجديد ، وزودتنى بالقوة اللازمة لمواجهة مستقبل حياتى» .

وعلى الرغم من أن الأمير فيلكس فى مذكراته يميل دائما إلى تضخيم بعض المعانى والملابسات فى حياته لكى يظهر نفسه فى أفضل صورة فإننا نجد أن تصرفاته الفعلية بعد اتصاله بخالته الدوقة الكبيرة إليزابيث تدل على أن

نصائحها قد أحدثت فى نفسه تغييرات كبيرة فى اتجاه الحياة الفاضلة ليزداد من الفضائل اقترابا ويزداد عن الرذائل ابتعادا .

وجريا على عادة الأمير فيلكس فى الاندفاع فى الاتجاه الذى يريد التوجه إليه، نجده قد أراد أن يكتشف بنفسه كيف يعيش الناس الفقراء فى روسيا . لقد كان يعيش طوال حياته بين الناس الأغنياء ، وخطر فى ذهنه أن يعرف كيف يعيش الناس الفقراء . والناس الفقراء فى روسيا هم أغلبية الشعب الروسى كما هو معروف ، وقرأ عنه العالم كله فى كتاب رائع أصدره الكاتب الروسى العبقرى الفذ فيودور دوستويفسكى بعنوان «الناس الفقراء poor people* "وكان الأمير فيلكس يوسوبوف يريد أن يعرف حياة الناس الفقراء فى روسيا فى الواقع الفعلى.

وقرر الأمير فيلكس يوسوبوف أن يذهب بنفسه لمشاهدة حياة الناس الفقراء فى حى «لارڤا Larva » فى سان بطرسبرج حيث كان يعيش كثير من عمال المصانع والناس الفقراء .

اصطحب الأمير فيلكس صديقين له ، وتنكروا جميعا فى ملابس الشحاذين، ووقف الأمير فيلكس وهو يرتدى ملابس الشحاذين على ناصية أحد الشوارع يسأل الناس أن يتصدقوا عليه بأى نقود . وكتب فى مذكراته يصف هذه التجربة بقوله : «وعلى الرغم من أننى كنت شحاذا مزيفاً إلا أننى شعرت بكثير من الاستياء والغيظ عندما كانت السيدات اللاتى تبدو عليهن مظاهر الثراء ، متحليات بالمجوهرات وتزيّنّ بالملابس الفاخرة وملابس الفراء الغالية ، وكان الرجال الأغنياء أيضا الذين يدخنون السيجار يمرون بى ويبتعدون عنى دون أن يتعطفوا على شحاذ مثلى ولو بمجرد نظرة واحدة » .

أما وقد أخفقت تجربة فيلكس وأصدقائه فى تمثيل دور الشحاذين ، فلقد ذهبوا إلى ملجأ مخصص لإقامة الناس الفقراء حيث أعطوا كل واحد منهم

(*) قمنا بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان :«الناس الفقراء» وعنيت بطبعه ونشره مكتبة ابن سينا بالقاهرة . والكتاب حافل بصور كثيرة لبؤس حياة الناس الفقراء فى روسيا فى عهد القياصرة .

بطانية بالغة القذارة. ويصف الأمير فيلكس فى مذكراته حياة الناس الفقراء داخل ملجأ الفقراء بقوله : «كان حولنا من كل جانب نفاية البشر و حثالة الآدميين من الرجال والنساء ، يفترشون الأرض وهم نصف عرايا ، أسكرتهم الخمر وتعلوهم القذارة . وكان يمكن لنا أن نسمع باستمرار صوت فتح زجاجات الفودكا المرة تلو المرة ولا يكف الناس عن احتسائها ، ثم يرمى من يفرغ زجاجته بالزجاجة الفارغة على جيرانه ، وكان الأقذار البائسون يتشاجرون باستمرار ويتبادلون الشتائم المقذعة فيما بينهم دون أى حدود أو قيود أو معايير . كان بؤس المكان يفوق أى وصف للمكان» .

وكان من الطبيعى أن يهرب فيلكس ورفيقاه من هذا المستنقع المزعج الذى كان يقبع فيه الناس الفقراء طوال ما بقى لهم من حياة . ويقول فيلكس فى مذكراته: «لقد كان من العسير بالنسبة لى أن أتصور أن ما شاهدته أثناء هذه التجربة إنما هو شىء حقيقى موجود فى الواقع الفعلى . كيف يمكن لحكومة فى عصرنا الحديث أن تدع الناس ليتعرضوا لمثل هذا البؤس والهوان؟ ولقد سيطر على تفكيرى ، ولم تفارق خيالى لمدة طويلة ذكريات المناظر الفظيعة التى كنت قد شاهدتها» .

ولكن تلك المناظر الفظيعة التى كان قد شاهدها تعتبر شيئا ضئيلا بالنسبة إلى المناظر البائسة المرعبة فى شدة بؤسها التى شاهدها عندما بدأ العمل مع خالته الدوقة الكبيرة إليزابيث فى موسكو نفسها ، وكأنما فقراء موسكو قد تغلبوا على فقراء سان بطرسبرج فى مسابقة الفقر والبؤس بين الفقراء والبائسين وذلك عندما أخذته خالته معها إلى حى «كيتروڤكا Khitrovka» من الأحياء السكنية الفقيرة فى موسكو ، وهى تقع بالقرب من نهر «يوزا» بالقرب من «الكريملين Kremlin» وهو يصف ذلك بقوله : كان غمام كثيف يخيم على المكان ، وكانت تغمره رائحة البول والبراز والقىء Urine, Feces And Vomit ، ولم يكن يقطن فى هذا الحى من أحياء موسكو إلا الناس الأكثر فقرا والأكثر

بؤسا والأكثر انسحاقا تحت وطأة الفقر . كل مبنى كان بيتا للعاهرات المحترفات أو حانة لبيع الخمر ، أو فندقا من أرخص وأسوأ الفنادق فى العالم حيث يستطيع الناس الفقراء أن يستأجروا سريرا لقضاء الليل بسعر زهيد ، وأولئك الذين كانوا يغامرون بالخروج من مأواهم بعد حلول الليل كانوا يواجهون المخاطرة بحياتهم ذاتها كانت مجموعات من النشالين واللصوص تتربص بالمارة عند كل منعطف أو تقاطع بين الشوارع منتظرين أن يهاجموا أى شخص يمر بهم . وكانت جرائم القتل تحدث ببساطة فى كل مكان . هنا كان الصراخ والعويل طلبا للنجدة يشق الفضاء دون أى استجابة أو نجدة ، وفى الصباح كان رجال الشرطة يطوفون بالشوارع والأزقة يجمعون الجثث الكثيرة العدد . ولم يكن رجال الشرطة لديهم الجرأة بحيث يستطيعون أن يدخلوا الشوارع والأزقة فى كيتروڤكا عندما يغلفها الظلام . كان بعض الرجال يتعرضون للطعنات المميتة من أجل انتزاع زجاجة ڤودكا من بين أيديهم ، وتظل جثث القتلى ملقاة يلفها ظلام الشوارع والأزقة . وكانت العاهرات تمارسن أعمالهن حيث يتم ضرب كثيرات منهن فى كثير من الأحيان وحيث تتم عمليات سرقة ما بحوزتهن من نقود مهما كانت قليلة ، وكان الضرب يفضى ببعضهن إلى الموت بكل بساطة لو حاول بعضهن الاحتفاظ بما فى حوزتهن من نقود . وكانت الجثث تملأ عربات كثيرة من عربات الشرطة كل صباح ، وكانت الجثث يتم تسليمها لكلية الطب فى موسكو لكى يتم استخدامها فى دروس ومحاضرات التشريح.

«وفى هذه الأجواء كان الأطفال يواجهون مصائرهم الفظيعة . كان الأطفال يستأجرهم الشحاذون الكبار بمبلغ خمسة وعشرين كوبيكا (*)فى اليوم . والأطفال الذين تصل أعمارهم إلى ثلاث سنوات كان يتم استئجار الواحد منهم بمبلغ عشرة كوبيكات . وكلما كان الطفل أكثر بؤسا فى مظهره ارتفع أجره . والأطفال الصغار المرضى وذوى العاهات والأمراض كانوا مطلوبين بأجور أعلى

(*) الروبل مائة كوبيك .

من الأطفال الأصحاء ،وكان الشحاذون يكسون أولئك الأطفال بالخرق البالية ويحملونهم وهم يمارسون أعمالهم فى الاستجداء طلبا لإحسان الناس الموسرين لإثارة عطفهم واستدرار شفقتهم وإحساناتهم . ولو مات طفل من جراء الظروف القاسية التى يتعرض لها ، يستمر الشحاذ فى حمل جثته لمزيد من الدخل، والأطفال الذين يمتد بهم العمر يتحولون هم أنفسهم إلى شحاذين يجيدون فنون الشحاذة والاستجداء بمجرد أن تقوى سواعدهم ، ويعزف الشحاذون الكبار عن استئجارهم عندما يصبحون أثقل وزنا وأكبر جسْمًا حيث إن أولئك الأطفال لايعرفون لأنفسهم مهنة أخرى . والعاهرات قد تَعَوَّدْنَ على بيع أطفالهن وهم فى سن الرضاعة إلى الشحاذين المحترفين فى سوق كيتروڤكا فى مزاد علنى ، ويستلم الطفل من يعرض أعلى أجر يومى لأمه . والبنات بدءا من السنة العاشرة من أعمارهن كانت تتم معاشرة الواحدة منهن جنسيا مقابل نصف روبل فى الليلة ، وكانت المومسات المخمورات الشابات يجلسن على قارعة الطريق وهن غير قادرات على الوقوف من جراء تأثير الڤودكا على كل منهن . وكان صغار الشحاذين يتقنون المهنة . كانوا يمزقون ملابسهم بأيديهم ، وكان يضعون أحذيتهم داخل المكان الذى يؤويهم ويمشون حفاة الأقدام لو كان أحدهم يملك زوجا من الأحذية . وكانوا يتجولون فى أحياء موسكو الراقية ، ويقف كل منهم فوق الثلوج ساعة بعد ساعة لكى يتسولوا النقود من المارة ، وهذا الحى المدهش من أحياء العاصمة الروسية موسكو هو الذى كان قد ألهم «چوركى» أن يكتب عمله الأدبى الرائع المعنون بعنوان : «قاع الأعماق The Lower Depths» الذى وَصَف فيه المآسى التى كان قد شاهدها فى كيتروڤكا» .

وهكذا ، فتحت مصاحبته لخالته فى زيارتها لهذا الحى عينى الأمير فيلكس يوسوبوف على ذلك الجانب الآخر من حياة الناس فى روسيا ، الناس الفقراء الذين لايسع أىٌّ وصف تصوير ما تحفل به حياتهم من بؤس وآلام ، تعاسة وشقاء. وكتب عن هذه الرحلة إلى أعماق حى «كيتروڤكا» فيما بعد يقول : «عالم كان يقاسى آلامًا أفظع من كل ما كنت أتصور أن تصل إليه آلام الناس الفقراء فى روسيا . وكنت أشتاق إلى أن أنتزع أولئك الفقراء من ظروف حياتهم المثيرة للشفقة ، وكنت أرتجف فرقًا من ضخامة عبء تلك المهمة» .

وكتب الأمير فيلكس يوسوبوف أيضا يقول : «كنت حتى ذلك الحين أعيش فقط لكى أجرى وراء الملذات ، متجنبا مناظر حياة الفقراء ومظاهر بؤسهم فى أى صورة من صور الفقر والبؤس . ولم أكن أدرى بوجود حقيقة أخرى غير الحقيقة التى تنادى بأن النقود هى قمة القيم وغاية الغايات لكل مسعى للناس فى الحياة وصولاً إلى القوة والنفوذ والسيطرة على مسار الأحداث للحصول على المزيد من الأموال . ولقد رأيت الآن وأدركت الخطأ الجسيم فى التفكير على هذا النحو فى ذلك النمط من السلوك فى الحياة المفرط فى الأنانية والرغبة الجامحة فى الامتلاك والاستحواذ على المزيد من المال ثم المزيد من الأموال . ومع شعورى بالزهد فى المال والنفوذ والسطوة على الآخرين والحصول على المكاسب الدنيوية شعرت أخيرا أننى قد وصلت إلى التحرر وحصلت على الحرية» .

كان التغيير فى عقل وقلب الأمير فيلكس يوسوبوف قويا وعميقا لدرجة أنه قرر أن يبيع كل ممتلكاته ويعطى الأموال الناجمة عن بيعها للفقراء لتحسين الأحوال المعيشية لأكبر عدد منهم محتذيا فى ذلك حذو خالته الدوقة الكبيرة إليزابيث . وقرر أن يجعل قصر أرخانجلسكوى Arkhangelskoe متحفا يضم أعمال الفنون الجميلة وليكون مسكنا مجانيا للفنانين يقيمون فى جزء منه سواء كانوا موسيقيين أو مصورين أو رسامين أو نحاتين أو كُتابا وأدباء وشعراء . والقصور الموجودة فى موسكو وسان بطرسبرج قرر فيلكس أن يجعل منها بيوتا للمسنين ومستشفيات لعلاج المرضى وجرحى الحرب العالمية الأولى . وقرر توزيع الأراضى الزراعية الشاسعة المساحات على الفلاحين العاملين بها كما قرر تمليك المصانع المملوكة له للعمال أيضا.

وأطلع الأمير فيلكس خالته على نواياه تلك وشجعته على تنفيذها بحماس شديد ، ولكن أمه عارضت ذلك بشدة ، وقالت له : أنا أريد أن تتزوج وأن تنجب لنا وريثا لثروتنا وممتلكاتنا . وصدمت فكرة الزواج انتباه الأمير فيلكس كما لو كان يعرف لأول مرة أن فى العالم شيئا اسمه الزواج وشيئا آخر اسمه

إنجاب الأطفال وشأن أكثر أهمية هو وراثة الأطفال للأموال ، واصطحبته أمه لزيارة القيصرة ألكساندرا وهى تأمل أن تنصحه القيصرة ألكساندرا نصيحة مؤثرة تفوق فى تأثيرها نصيحة أختها الدوقة الكبيرة إليزابيث . وقالت له القيصرة ألكساندرا : «إن أى رجل يعتد بنفسه يجب عليه أن يخدم بلاده فى صفوف الجيش ، أو أن يشغل منصبا مهماً فى البلاط أو فى حكومة بلاده . وأنا مندهشة أنك لا تفعل شيئاً من ذلك» . وبشأن الخدمة فى صفوف الجيش قال فيلكس إنه يفزع من مجرد تصور انضمامه إلى صفوف الجيش خاضعا للأوامر العسكرية . وبشأن تقلده منصبا فى البلاط أو الحكومة قال : إن سمعته السيئة فى الخلاعة والمجون تجعله لايتصور إمكانية ذلك مجرد تصورٍ ! وقال فيلكس أيضا : إنه قد ورث ثروة طائلة وعندما يجتهد فى إدارة هذه الثروة يمكنه أن يخدم روسيا ويخدم القيصر على أفضل وجه . وعندئذ قالت له القيصرة بطريقة عفوية : «ما روسيا ؟ وما القيصر؟ القيصر هو روسيا ! عندما تخدم القيصر تكون قد خدمت روسيا!» وهكذا سمع الأمير فيلكس من القيصرة نفسها ما يؤكد نزعتها الاستبدادية ! وعندما تصادف أن دخل القيصر نيقولا الثانى الحجرة بادرته الإمبراطورة ألكساندرا بقولها : «أفكار فيلكس أفكار ثورية للغاية!» .

وفى عام ١٩١٣ ، أصرت كل من زيناید Zenaide والدة الأمير فيلكس وخالته القيصرة ألكساندرا على أن يتم زواج فيلكس دون أى بطء أو توان ، وعقدا العزم على أن يتزوج من الأمير إيرينا ألكساندروفنا Irina Alexandrovna وتمت الخطبة بالفعل ولكن الطامعين فى الزواج من الأميرة إيرينا المرموقة المركز الاجتماعى والمالى حاولوا جاهدين إفساد هذه الزيجة وأثاروا أسرار خلاعة ومجون الأمير فيلكس طوال حياته ، وخصوصا ما كان يشاع عنه من الجنسية المثلية . وإزاء ذلك صارح فيلكس خطيبته بكل شىء مؤكدا لها أن ذلك إنما كان فى الماضى قبل أن يتقدم لخطبتها ويقع فى غرامها ، وأكد لها أن لديه من قوة الإرادة ما يمكنه من التزام جادة الصواب فى الحياة بعد أن جرب بنفسه وخبر

كل شيء ، كل شيء ، وعزف تماما عن كل شيء فى حياة اللهو والمجون . وإزاء هذه المصارحة وتلك الوعود الحماسية وإزاء شباب ووجاهة وثراء ومركز الأمير فيلكس أصرت الأميرة إيرينا على الزواج من فيلكس . وبهذه الطريقة أيضا تغلب فيلكس على معارضة عم الأميرة إيرينا «الكونت موردينوف Count Mordvinov» الذى كان يعمل مساعدا لوالد الأمير فيلكس وتم الزواج بالفعل فى يوم ٩ فبراير سنة ١٩١٤ فى حفل كبير هو أكبر حفل زواج تم فى بطرسبرج طوال سنين ، وكان كم الهدايا للعروسين كما هائلا يفوق الوصف والحصر.

وقضى العروسان شهر العسل فى كثير من أقطار أوربا وفى مصر حيث زار العروسان أماكن الآثار المصرية ، وشاهدا الأهرام وآثار صعيد مصر وركبا الباخرة فوق النيل ، ثم سافرا إلى القدس فى فلسطين حيث فوجئ الأمير فيلكس بشاب من الحبشة أسمر اللون يقذف ورقة داخل العربة ويقفز على الإفريز الجانبى لها ، وعرف الأمير أن الشاب الحبشى الأسمر الذى يرتدى الملابس البيضاء ، ويضع على رأسه عمامة ملونة بالألوان الزاهية يريد أن يعمل فى خدمته ، وأعجب الأمير فيلكس بمنظره وأدخله إلى العربة وألحقه بخدمته ، وأصبحت لهذا الخادم حظوة كبيرة لدى الأمير فيلكس إذا ارتبط التحاقه بالخدمة معه بأجمل الذكريات.

وأثناء زيارة العروسين لألمانيا وقعت حادثة اغتيال الأرشيدوق «فرانز فرديناند Franz Ferdinand» ولى عهد العرش النمساوى وزوجته فى سيراييفو على يد شاب صربى فى ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ ، كما وقعت محاولة لاغتيال راسبوتين فى روسيا على يد امرأة طعنت راسبوتين بخنجر . وأصيب راسبوتين بجرح غائر ولكنه عولج وشفى من تلك الإصابة.

وكانت حادثة اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند سببا فى الحرب العالمية الأولى ، ودخلت روسيا فى تحالف مع الصرب ضد النمسا وألمانيا ، واتسعت

دائرة الحرب لتشمل كل الدول الأوربية . وكانت الحرب بين روسيا وألمانيا على وجه الخصوص هى أهم جوانب هذه الحرب العالمية الأولى مما كانت له آثار مباشرة على رحلة شهر العسل للأمير فيلكس يوسوبوف وزوجته الأميرة إيرينا، إذ قبض عليهما رجال الشرطة الألمان وتعرضا لكثير من الإساءة أثناء إخراجهما من الفندق . وبعد سلسلة من الإجراءات المهينة والشتائم تم إخطارهما بضرورة مغادرتهما للأراضى الألمانية خلال أربع وعشرين ساعة . وتوجه العروسان إلى السفارة الروسية فى برلين التى كان موظفوها يستعدون أيضا للرحيل وركب العروسان مع السفير الروسى وأعضاء السفارة قطارا اتجه بهم إلى الحدود المشتركة بين ألمانيا وروسيا فى طريق العودة إلى الوطن ، وانتهى شهر العسل هذه النهاية القاسية.

وبعد وصول العروسين إلى روسيا اتخذا جناحاً فى قصر مويكا فى سان بطرسبرج بينما كان أبو فيلكس وأمه يقيمان فى قصرهما فى موسكو حيث كان أبوه يشغل وظيفة الحاكم العسكرى للعاصمة موسكو.

وقرر فيلكس أن يحول معظم قصر مويكا فى سان بطرسبرج إلى مستشفى عسكرى للجنود الروس الجرحى بسبب الحرب ، واستأجر أطباء وممرضين وممرضات لعلاج مصابى الحرب ، وسرعان ما امتلأت حجرات القصر فى كثير من الأجنحة والمبانى فيه بالجرحى وبالجنود والضباط الذين يواجهون شبح الموت من جراء الإصابة فى ميادين القتال.

وكان فيلكس نفسه يكره الحرب ولايريد بأى حال أن ينخرط فى سلك العمل العسكرى ، واستفاد بطبيعة الحال من قانون الخدمة العسكرية الذى يعفى الابن الوحيد لوالديه من الخدمة العسكرية ، وكان الأمير فيلكس بعد مصرع شقيقه فى المبارزة المشئومة هو الابن الوحيد لوالديه ولكن أهوال الحرب العالمية الأولى ، وكثرة المصابين الذين شاهد فيلكس بنفسه خطورة الإصابات التى تعرضوا لها ، وهزائم الجيوش الروسية فى كثير من المعارك كانت تنغص

مضجع فيلكس وتجعله يفكر ويفكر فى مصير روسيا وفى ظروف حياة ومعيشة الشعب الروسى ، وما يعانيه هذا الشعب فى حياته فى الجانب المدنى وفى الجانب العسكرى على حد سواء .

وأنجب فيلكس طفلة حضر تعميدها القيصر نيقولا الثانى والقيصرة ألكساندرا وقدما الهدايا للطفلة التى تجمع لديها العديد من الهدايا مما أدخل شيئا من الشعور بالسعادة على فؤاد الأمير فيلكس الذى كان مثقلا بالتفكير بشدة فى هموم روسيا ، حيث كان شبح شخصية راسبوتين لايكاد يفارق تفكيره وخياله كما كان شبح شخصية راسبوتين لايفارق تفكير ولاخيال معظم أبناء الشعب الروسى بمختلف فئاته، وكانت المناقشات بشأن راسبوتين وفضائح راسبوتين وتأثير راسبوتين على الإمبراطورة ألكساندرا وتدخله فى سياسة روسيا مناقشات مستمرة لدى عامة الشعب الروسى وخاصته ، لدى الضعفاء والأقوياء ، لدى الفقراء والأثرياء ، لدى أبناء الطبقة الأرستقراطية وأبناء الطبقة الوسطى وأبناء عامة الشعب على حد سواء . ولكن شبح شخصية راسبوتين كان يجثم على صدر الأمير فيلكس يوسوبوف بأكثر مما كان يجثم على صدر أى شخص آخر فى كل أرجاء روسيا .